شيطان بنتؤور

— ٢ —

(المحادثة الثالثة)

قال الهدهد : كنت فى صدورى عن ميت رهينة تحت سماء الليل أنظر قلة الرسوم لديها . وأرى تدور الاطلال عليها ، وما هى الا مقابر بعض الملوك ، ومدفن العجل أبيس وذلك التمثال فى حفرته التى تنزل به عن سطح الارض بقدر ما جرى الدهر على منفيس فى سالف الاحقاب ، وما عقدت سنابك خيله عليها من متراكم الحصى والتراب . فاعجب له كيف لم يبق من حواء العواصم غير بقية لا تذكر ، فى جانب ما رأيتها عليه من السعة المتناهية والعظمة الجمة والعمارة المدهشة ، وتبصرت مليا فى السبب فلم أر الداء الا موقعها الذى عرضها فى كل زمان للفيضان يعلوها ، وسلها الى رياح الصحراء تختلف عليها فتذروها . وذهبت مع المؤرخ عبد اللطيف (١) الى ان معظم البلوى انما جاء من عبث الامم المختلفين أديانا ، الذين أغاروا على وادى النيل ، ومدهم يد الحسد الى آثار الفراعنة بمعاول الجهل ، وما زال الحسد بمرصد للفضل ، وما انفك الجهل عدو العقل .

قال « وكان جؤجئى قد جاش بالشعر عند ما نظرت التمثال فى حاليه ، وخبرته فى يوميه ، فقلت فيه :

إن جئت (منفا) وهى أو ... لى بازديارك وانتيابك
ومررت بالاطلال مرآ ... فى مجيئك أو ذهابك
بالأمس كنت مؤلهاً ... ماذا لقيت من انقلابك
لا ينظرون الى ذرا ... ك وينظرون الى رحابك
ويخاطبونك راغدين ... الى ثوابك أو عقابك

***

أزرى برمسيس البلى ... وهوى به زمن هوى بك

---

(١) يشير الى المؤرخ الوصاف عبد اللطيف البغدادى صاحب وصف مصر المعروف

و قصار خطبك عند ذى نظـــر يبالغ فى خطابك
عابت احـــداث الزما ن فكنت اكمل عند عابك

٭٭٭

وحضرنى بشان هذا الاثر شىء من قبيل ما مر بالفكر بشأن الاهرام ، فأملت من جهة ان ينشط المصريون يوما مالتشييد بنائه ، وتكملة اعضائه ، وتجديد حسنه ورونقه. عساهم يقضون بهذا العمل الجليل ، حق خير ملك لخير جيل ، رأى وادى النيل . وتمنيت من جهة اخرى ان تفشو التماثيل فى مصر ، لأن فيها بعض المكافأة لمن سلف ، وتعظيم شأن الحياة فى نفس الخلف . ثم فكرت فى رجل عظيم القدر جليل المقام خطير الشأن فى صحائف الايام ، لاصحف الاقوام ، تضىء مزاياه ثنايا التاريخ ، وترفعه اعماله فوق البرجاس والمريخ ، اذا مات رشحته الامة المصرية ، ليمثل بالحجارة الابدية ، ويبجل بالكلمات الذهبية . (١) فما زال بى الوهم والخيال ، حتى وجدت طلبتى فى الرجال ، ولم يبق الا عمل التمثال . فقلت حينئذ فى نفسى «أين من يصنعه وأين آلات ترفعه » وكنت خرجت من احلامي فى المدينة الغابرة ، وبلغت مقامى فى ضواحى القاهرة ، فنمت أطيب المنام ، أصل الاحلام بالاحلام ، حتى اذا طلع الفجر ، انتبهت اشوق ما كنت الى النسر . يطول النهار ولا صبر ، كأن احدى ساعاته شهر ومالى لا اشتاق إلى معلمى الحكمة فى الحديث ، وملهمى القديم من العلم والحديث ، وممثل الحقيقة فى حسى ، وكنت أجهلها فى أمسى ، أو أغالط فيها نفسى : ولما جاء الأصيل هجمت الى شاطىء النيل ، فوجدته كما عهدته ، والفت الحال مازال . صغرت مدينة وكبرت مدينة ، وعطلت ضفة وضفت على أختها الزينة ، فاطمأن قلبى وقلت صدق النسر وعده وعمدت لأقرب الزوارق الحاضرة ، وهى كالعرائس فى النيل خاطرة ، بعضها فى جيئة وذهاب ، ومنها المتسابق فى كل منساب ، الآخذ بانواع الرياضات والالعاب ، حتى خيل لى انه التامين ، أو أنى لدى السين فى باريز . فطرت اليه وأنا أحسب أنى سأجد سارية أحط عليها ، واستند فى وقوعي اليها ، فلقيت جزاء من ينقل قدمه ولا يبصر قدامه اذ علق جناحى فالتفت فاذا أنا فى يد رجل تعلوه كبرة وقترة ، ويضرب لونه الى الصفرة ،

---

(١) لقد صحت الامنية وتحققت بظهور المغفور له سعد زغلول باشا فقد اضاءت مزاياه فى التاريخ به ورفعة اعماله فوق البرجاس والمريخ . واتيح له فى مصر من النفوذ مالم يقع من قبله لداود ولا لابنه سليمان

وعليه ثياب مزركشة من ثمين الكتان ، وقد جلس امامه غلام من أوسم ما استخدم الكبراء فقلبني قليلا ثم دفعني الى ذلك الغلام وقال هذه طلبتنا ساقها الآلهة الينا ، فتحفظ عليها فقد تفاءلت أن شفائي فيها . مازال طبيب الرأس يحيلني على طبيب الاحشاء ، وهذا يرشدني الى الطبيب الروحي ، و هو يرى دوائي في مسألة الماء كل وقد أعيت الجميع علتي ، حتى وصف لنا مضحكنا (أوتا) الذي اشتهر بصدق تجاربه على قصر قامته ، وتشويه خلقته ، أن رأس الهدهد اذا سحق وأضيف اليه قلامة من حافر البغل ، ومزج هذان بشيء من شحم الخنزير المذبوح قربانا لاوزيريس الاله والقمر في ليلة تمامه ؛ ثم تناولت كل يوم حبة من هذا التركيب ، فقد ينفعني ذلك في علتي التي حارت فيها العقاقير وعجز عنها الاطباء

قال الهدهد فما استتم الرجل حتى ذبحت من الذعر بغير مدية ، وقلت في نفسي ما ذنبي حتى يختلط رأسي بحافر البغل وشحم الخنزير ، وليس أحقر من هذين . فجعلت أفكر في حيلة تنقذني من هذه الميتة الشنيعة فرأيت أن انطق لعل الامير يستعظم الأمر فيضن بي . ففعلت فاذا أنا طليق الجناح أطير فنظرت تحتي فرأيت الرجل يشير نحوي براحتيه كأنه يستغفر لي أو يستغيث بي ، و الزورق يكاد ينقلب بمن فيه ، من هول ما فاجأ رجاله من أمري ، وشهدوا من حالي مع مولاهم . فضحكت من رؤيتهم على هذا الحال ؛ وارتفعت في المطار ، حتى جاز تني المدينة فجعلت أحط تارة فوق جدار ، و استتر أخرى في الاشجار ، و انتقل من حانوت الى دار ، وانا في هذه الاثناء الحظ بجمل الاحوال ، واتزود من المدينة نظرة عامة فرأيت حركة لم أر مثلها فيما غبر ، و شهدت من العظمة ما يصغر المدائن الكبر . شوارع و سيعة ؛ ودور رفيعة ، وحدائق بديعة ، وجماهير متدفقة ، وشرطة منبثة متفرقة ، وخيل مركوبة ، ومركبات مجرورة ومخازن تفيض من صنوف المتاجر ، وحوانيت لاتحصى لديها ضروب الصنائع . و كان من أعجب ما رأت العينان أنس الحيوان الى الانسان ، واطمئنان الطير اليه في كل مكان ، تمشي بجانبه آمنة ، وتتوثب حوله مطمئنة . وأعجبها الكراكي التي رأيتها تتألف الأهالي ، و كنت أظنها لاتستأنس . ورأيت نساء العامة يحملن أحمالهن على الاكتاف ويجعلها رجالهم فوق الرؤس ، وتلبس المرأة ثوبا واحدا و يلبس الرجل ثوبين وقد دهشت من توحد الزي عند القوم ، و ايثارهم من اللباس الكتان او الصوف

واختيارهم من الالوان الأبيض مع نظافة تضرب بها الأمثال ، فكأنما كملت الجوامع فيهم حتي هذه .

وتحيتهم فى الطريق أن يعطي أحدهم بيمناه الى الارض واذا عارض كبيرهم صغيرهم تنحى حتى يعبر ، واذا مر به وهو جالس

قام له حتى يمر . ورأيت جميع الحيوان فى الطريق الا الخنزير ، ثم عرفت السبب اتفاقا . وذلك انى ابصرت بزحام فاقتربت منه فعلمت من تساؤل الناس أن أحدهم تمسح به خنزير فهم يسوقونه الى النهر ليغمس فيه بجميع ثيابه ، وهم يعتقدون أنه لايطهر بدون ذلك . فرثيت فى نفسى لحاله وضحكت من أمر هذه العادة . ثم احتوانى ميدان عظيم ينحسر الطرف فى جوانبه ، ولاتحيط العين باطرافه ، فابتهجت باستقباله ، وقلت لعله ميدان الملك ولعل الملتقى قريب .

وفى الواقع كان الاستاذ بنتؤور أول أنسان وقع نظرى عليه . رأيته يشير بوجهه المتهلل نحو السماء ، وكأنما يفتش عنى الجواء وينشدنى فى طبقات الهواء . فلما أخذنى بصره رفع يده يستنزلنى فهبطت فيها ، ثم وثبت منها الى كتفه منتفضا من التأنس والحبور ، مرتقا من غلب السرور .

فسالنى عن أمرى ، ومالقيت من وحدتى ، فى رحلتى . فحدثته حديثى أوله وآخره - فضحك من حادثته الزورق وقال تلك واحدة لم يكن لك عنها غنى ، وأنت فى أول أبامك بهذه المدينة . لأنى أردت أن تجمع فى حكمك عليها بين ماتسمع منى وما تراه فى خاصة نفسك من أحوال أهلها وأطوارهم واخلاقهم وعاداتهم . فما رأيك فى ذلك المريض ؟ قلت أحمق جاهل يامولاى ، وأطباؤكم أحمق منه وأجهل . وأنى لاعجب منهم كيف يبلغون فى الطب إجارة الجسد من الفساد ، وحفظه من البلى على مدى الآباد ، ثم ينزلون الى الايمان بالرقى والطلاسم ، واعتقادهم ان رأس الهدهد وحافر البغل من العقاقير النافعة فى بعض الادواء ؟

قال : الخرافات يابنى وجدت مع الانسان منذ البداية ، وسوف تصحبه الى النهاية ؛ ولو بلغ من المدينة أقصى غاية . وأظنك عهدت باريز لاتخلو منها وهى فيما يزعمون عاصمة العواصم ، وكرسى التمدن القائم

قلت كذلك هى يامولاى . قال لكن هلا أخذت من عبارة المريض أن الاطباء فى منفيس ضروب ، وأن توزع الاعمال قاعدة التطبيب بينهم . فهذا للرأس وذاك للبطن والآخر لأمراض العين ورابع لأدواء الأذن . كل على قدر اجتهاده فى الفرع الذى وقف نفسه عليه . وهذا ماصار اليه الطب أخيرا عند الغربيين ، وهم يعتقدون أن ذلك بداية النجاح الحقيقى وفاتحة عصر للعلوم الطبية ، لايقف ارتقاؤها فيه عند حد . فلو لم يكن من فضل اطبائنا الحمقى الجهلاء سوى أن القوم أخذوا عنهم هذا المبدأ الجليل ، لكفى

على أننى عالم بان الطب لم يتقدم فى هذه العاصمة التقدم اللائق بمنزلتها فى الحضارة الجدير بمبالغها فى المدنية ولهذا الأمر أسباب :

أهمها قلة الامراض فى هذه الامة ، لأنهم من جهة يعتنون بامر نظافة الابدان والملابس ، إذ من عادتهم أن يغتسل واحدهم ثلاث مرات بالنهار ومرتين بالليل . فمثلهم كالمتقين منكم معشر المسلمين الذين يتوضؤون خمس مرات فى اليوم . ومن جهة أخرى لأنهم فى الغالب رجال عمل ونهوض وحركة ، واذا كان النشاط فى الطباع ، سلمت الجسوم من الاوجاع .

وبديهى أن توسيع العلوم يكون بقدر الحاجة اليها فاذا عظمت عظم الاشتغال بها ، وكثر الاختراع فيها وإذا قلت قل . وأكبر برهان على ذلك ماأشرفت اليه من بلوغنا الدرجة القصوى فى التحنيط والتصبير ، فلولا اعتقاد الافراد ان الاجسام بعد الموت مقدسة لاينبغى أن يصل اليها الفساد ، لما اجتهد الاطباء المختصون بهذا الفن فيما يمارسون من جليله وحقيره ، حتى بلغوا فيه درجة الأعجاز ، منساقين برغبة الكافة ملبين منادى الحاجة العامة . وما يقال عن التحنيط يقال كذلك عن فن العمارة والانشاء ، فليس السبب فى رقيه بيننا هذا الرقى المعجز الباهر ، إلا مبالغة المصريين منذ القدم فى قيمة الآلهة وتصورهم إياهم فى منتهى العظمة المؤيدة الأزلية ، فلا يرفعون لهم من الهياكل إلا ما يليق بمقامهم هذا ، ويسكنونه إلى الأبد . على أنك لو قسمت دور الأهالى من جميع الطبقات . وما رأيتها عليه من البساطة والاقتصاد فى البناء ، بالهياكل وما شهدت من فخامتها ، واجتليت من زخرفها ، لعلمت أن دعواى مبرهنة من نفسها ، ولأيقنت أن قصور المصريين فى الطب لم يكن عن جهل وقلة ذكاء ، لكن عن عدم حاجة ماسة وقلة اعتناء .

قلت «صدق مولاى وأفاد . لكن هذا ميدان الملك فأين قصره ؟» قال «تظل تحلم بالملك وقد أذكرتنى أن لى كلمة أقولها لصائغه الخاص بأمر جلالته ، فلنبدأ به الآن » قلت « الأمر اليك يا مولاى » فمشى النسر وأنا فوق كتفه حتى مر بحانوت ضيق المدخل زرى المنظر فرأيته يهم بالولوج ، فقلت لعلك ضال يامولاى ، فمثل هذا الحانوت لا يكون لصائغ الملك . قال بل الضال أنت يا كثير العجلة . فخرست ودخل الأستاذ فخف لاستقباله رجلان كهل وغلام ، وكانا ساعة دخولنا متقابلين على منصة للعمل مكبين على الذهب يفرغانه ثم يصوغانه ، فحييناه حق تحية ، ثم عادا إلى العمل وأخذا بما كانا فيه وعندئذ قال الرجل للاستاذ أتأذن يا مولاى أن أتمم حديثى مع هذا الغلام ثم أتلقى أوامرك . فأجابه افعل فلا نكره أن نشاطره الفائدة فاندفع الرجل يقول :

اعلم يابنى أن الأمانة رأس مال التاجر ، وهى والاتقان كلاهما رأس مال الصانع . وقد صيرتهما لى عادة منذ مارست هذه الصناعة، فلم أكلف عملا إلا استجمعت قواى لتحديده وأحكامه، وفكرت فى اتقانه قبل الفكر فى اتمامه. فان بدا نقص بعد ذلك برأت نفسى وقلت على بذل الجهد ، وليس على أخذ المستحيل . وكنت فى بدء تعاطى هذه الحرفة مساعدا لمحب الحقيقة استاذى الذى انتقل إلى الدور الأبدية ؛ فتعلمت منه محبة العمل والاخلاص فيه وبذل الجهد فى اتقانه ، وهو الذى ذهب تابوت الملك سيتى والد جلالة الملك ونقشه فأبدع نقشه وكان أجره عن ذلك مائة قلادة من الذهب خرجت اليه من الخزائن الملكية فهنأته يومئذ بما نال من جسيم الربح فكان جوابه لى

«اعلم أنه لو عرضت على خزائن الملك جمعاء وأنا فى العمل أصنع التابوت لما أعرتها نظرا لأنى رجوت أن يقال ملك الصناعة، شرفها يوم مات ملك الجماعة. فوعيت هذه النصيحة كما يوعى الوحى الآتى من جانب الآلهة وهاأنا أبذلها لك كما بذلت لى من قبل فكانت، أصل سعادتى وسر نجاحى والسبب فى تحصيل هذه الثروة الجسيمة وارتقائى فى القصر هذه المنزلة العظيمة

قال الهدهد: وكان الرجل يقدم النصائح لتلميذه وكأنها قلائد يصوغها وينثورها يتثاءب ويتمطى فخشيت أن يحول بنومه المعهود دون سماعى مقالة الصائغ إلى آخرها

فكان ماخفت أن يكون ، وغلب على النسر النعاس فقال لى بلسان متلعثم اذا جاء الليل نامت الشياطين ، فارجع الى عشك الآن والقنى غدا فى هذا الحانوت

قال الهدهد: لم يكن الا اغماءة حتى رأيت نفسى فوق سطح بيت العمدة فى ميت رهينه فاستعذت بالله واقلعت من فورى للطيران، أؤم عشى فى حلوان.

(المحادثة الرابعة)

قال الهدهد : وكان الغد فأصبحت فيما أمسيت فيه أهفو الى النسر ، ولا اطيق عنه صبرا ، والنفس الي ما يشغلها شيقة ولعة . فما زلت رهن أحوال وجار عيش وأشغال ، حتى زينت السماء الدنيا بالآصال ، وإذا أنا من جؤجئى فى سفينة عند دأماء ، وهى تجرى فى بحر ولا ماء ، من مذاهب السماء . دفتها ريشتان ، وشراعها جناحان . فاستوت على ما وراء النهر . وانى لفى الحانوت كأنى لم أبرحه ، أرانى فوق كف النسر ، أنظر الى الصائغ والغلام وكأن مامر فترة من حلم ، اذ الحديث متصل والصائغ يقول : هذا يابنى صاحب الملك وشاعره ، وبوقه فى الغزاة وظله فى النقلة ، وداعيه فى الامة ، وآية ملكه فى الاولين ، وحديثه من بعده فى الآخرين أوفده حفيد السموات ، وشعاع الشمس فى الجماعات ، برسالة عملت بها قبل أن تبلغ الى .

ثم التفت الى بنتؤور وسأله قائلا أليس أمر الملك يامولاى أن تنقش على القلائد الثلاث صوره الثلاث يوم قدم طيبة ظافرا ، ويوم صلى صلاة الظفر فى هيكلها ويوم المهرجان وكانت اشارته السابقة أن تتضمن الصور الثلاث حملته على الاعداء فى آتيش ، ودخوله المدينة فاتحا ، وجلوسه لملكها ومترفوها يأتون أذلة صاغرين . ؟ قال فى هذا جئت ، فلعل انسانا جاءك به قلبى

فتبسم الصائغ حينئذ وقال انه ليس انسانا . إنه الملك بذاته أشرق هذا الحانوت بنوره . وكأنى به قائم عند رأسى : يقول اصنع كيت وافعل كيت ، وأنا جالس كما أنا الآن أحدثه كما احدثك ، ثم مشى تظلله السماء وتحرسه عين ذكاء .

قال الهدهد : قد دهشت مما سمعت ، وودت لو كنت حاضرا فى تلك الساعة أرى الملك وأسمع حديثه وتحسر الغلام كذلك وسأل استاذه قائلا وأين كنت يا مولاى عند ما تقدس هذا المكان بالملك ؟ قال كنت فى اصباحك لم تغد

بعد الى العمل فلم أشأ أن يخجلك ان تعلم أن ملك الملوك سبقك الى حانوت انت فيه صبي تتعلم صناعة . فخرس الغلام وتلون ألوانا من الخجل .

ثم قال الصائغ يخاطب الاستاذ ليس العجب يامولاى أن يسعى الملك الى عبده فان دأبه الأخذ بيد العاملين ، فكيف بعباده المخلصين أمثالى ؟ على أن كبار الملوك يتنكرون لأخذ الحكم التى لاتنفذ على الملك حجابهم ، وطلب الحقيقة التى لاتلج عليهم أبوابهم ، كما يتنكر صغارهم ليزدادوا من الصغائر لكن العجب كل العجب أن يلغينى الملك قد الغيت العمل بأمره الاول ، قبل أن ينقضه ، وعملت بما جاء من أجله قبل أن أعلم به .

أمهلته ريثما تكلم وأشار وأمر ، ثم كشفت عن القلائد بين عينيه ، فاستغرب الأمر و سأل عن السبب . فقلت له : القلائد يامولاى للملكة الصغرى وهى بنت ملك آنيش الذى كان عزيزا فاذللته ، وملكا فاستعملته ثم صاهرته ، وأنت تحبها وتفضلها فى هوى القلب على سائر نسائك ، ولحبل من مسد تجعله فى جيدها ، أحب اليها من قلائدك التى تذكرها فاشل قومها و ذل أبيها . فسر الملك بما قلت له وأقرنى على من اخذت به من العمل وقال خلق الغرور للملك ، وقد يبلغ بنا معشر الملوك حتى ننسى الى أعز الناس علينا ، ونحن نحسب أننا نحسن اليه .

قال الهدهد : ثم ودع الاستاذ الصائغ وخرجنا و أنا أقضى العجب مما سمعت و رأيت ، ولا استطيع مع الاستاذ صبرا .

فلما صار وحده قلت له : حفظت أشياء وغاب عنى شىء واحد يا مولاى . قال وما ذاك . قلت انفاذ الملك اياك فى أمر سبقت به كلمته للصائغ . فتبسم ثم قال : هذا من تأديب رمسيس صحابته لكيلا يطغو . يعلمنا أن له جسدا قدمين ، ولسنا وعينين وأن يبين غمر العامة ولفيف الخاصة ممن لايحوزه مجلسه ، من يليق أن يسعي الملوك اليه ، ويأخذوا الحكمة عنه . قلت تظل تشوقنى اليه فهل آن أن أراه أم لم يأن يامولاى ؟

قال لكل شىء ميقات ، وليس هذا وقت رؤية الملك فاصبر معى أو انقلب إلى عشك جاهلا محروما ، فاستعنت بالله على الاستاذ فى نفسى ، ولذت بالصبر فى أمرى

وطفق يجوب بى الطرق ويجول فى الأزقة ، حتى خرجنا إلى بناء رفيع فوق طريق وسيع فقصد الاستاذ قصده فسألته ماهذه الدار يامولاى ولمن؟ قال هذه يابنى شمس النهار ومشرق الانوار ، ومهبط الحكمة والاسرار ونقطة تلاقى العقول الكبار دار الادب والفلسفة أسسناها على مثال الدار الكبرى فى طيبة وكنا أربعة فلم يمض علينا عشرون عاما حتى نمت وربت ونجحت ورقت ، وأصبحت من تعـــدد الاساتذة وتكاثر الطلاب وتهافت المستفيدين من الاجانب ، علماء وفلاسفة بحيث تضارع اختها فى طيبة ويميزها أن ليس للملك ولا لحكومته ولا لكهنته يد فى التأسيس ولا سبيل على التدريس وانها غراس الأفراد وإحدى هممهم ، فانظر إلى الكثير كيف يأتى من القليل

وعن ميمون أمر هذه الدار أن وزير الخزينة السلطانية لما سمع بها وزارها وهى فى أيامها الاولى كتب لها صكا بربع ثروته الواسعة تستوفى ذلك فى حياته وبعد مماته ثم مات وانتقلت روحه الكريمة إلى (المغرب) (١) وكان قد أدخل ولديه فيها فلا ورأس الملك يابنى ما رأيت أنجب منهما ولا أحب للعـــلم ولا أصبر على تحصيله ، ولا أطلب للغايات فيه إذا ذكر فتيان المملكة فى مجلس صاحبها سماهما واثنى عليهما ، وسمع ثناء الناس فيهما . فليت اباهما يرد الى الحياة لينظر كيف تجزى العناية المحسنين ، وتجعل عماد بيوتهم من بعدهم البنين ؟

قلت سعداء انتم معشر الآباء ، اتفق اربعة منكم ولن يتفق اثنان مناوبذل احدكم ربع ماله فى البر ، ولن ينفق أحدنا دخل عام واحد فى صالح الاعمال . ونحن الذين قال بعضهم فينا (اتفقوا على ان لا يتفقوا) (٢) فاحفظت عبارتى الاستاذ وقال : ما هذا السم فى الدسم ، ومن ذاك الذى يثبط الهمم ؟ هذا ومثله أيها الهدهد من الاوهام وأنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها . الاوهام داء الامم ومنية الشعوب ، اذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الاساس ، وكالنار فى الشعار ، وكالحبل فى الخناق ، وكالعلة فى القلب لا يخفق معها الا الى حين . ومن تبالغ نكبد الدنيا على الشرق الحاضر ، تبالغ هذا الداء فيه . حكومته دواليب تدور بالاوهام ، وبلدانه مملوءة

---

(١) كانوا يعتقدون أن الروح بعد مفارقة البدن تذهب الى حيث تغرب الشمس .

٢ كلمة معروفة للسيد الافغانى اتفق المصريون على ان لا يتفقوا ولعل زمانها قد مضى الان .

ما بين السماكين من الاوهام ، وأمه تروح وتغدو حيث تجعلها الاوهام . نظر الواحد منهم فى الأمور عرضا وبعين غيره ، وحكمه فيها من الهوى ، وانقياده فى ايرادها واصدارها بأزمة الاوهام .

قال لكم رجل قولا فو همتكم فتم أحياء . ليس مع السلوة عيش ، ولا مع القنوط عمل ، ولا مع اليأس حياة . وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهين الغرائم ، واماتة القلوب ، واخراج النفوس من الرجاء الى اليأس ، الذى هو الموت فى أشنع صوره ، وأقبح احواله .

قلت الأوهام يا مولاى داء الامم ، منذ القدم . لم تخل منها أمة خالية ، ولن تخلو منها أمة آتية . فما بالك تلزمها فريقا دون فريق ، وتنكرها على قوم ولا تنكرها على آخرين ؟ قال خلق الانسان من ضعف ، فكان الوهم أول دين دان به ، وأول حكومة دان لها ، وأول شيطان سكن اليه كان على وجه الدهر يستقبل المجسمات ، ويتخذ منها آلهة يسجد لها ، ولا يزال آخر الدهر يتوجه اليها بالتأليه والتقديس والتنزيه . وإذا عبد الله كما تعبدونه أنتم والنصارى واليهود ، كان لله الشطر من تلك العبادة ، وللاوهام . الشطر . فالمسيحى يبلى الحديد فى كنيسة القديس بطرس بروما استلاماً وتقبيلا ، كما يضع المسلم خده فى عتب الاضرحة بالقاهرة تمسحاً وتأميلا وتعظيما وتبجيلا . وكان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ، ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله . ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عبادا للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشهم الحجاب وضللهم الاستبداد .

فالسلطان فى الأصل للوهم لا للسلاطين وحقيقة الطاعة له لا للمالكين ، وكان الوهم أول شيطان سكن اليه الانسان تولد منه يقينه ونشأ من علمه وجرت عليه أموره ، وانبنى عليه حكمه ، وتألف منه مألوف من عاداته . يحس به ويشعر ، ويسمع به ويبصر ، ويعجز به ويقدر . وبه يعيش ، وعليه يموت . خلت آلاف من السنين وحافر البغل فى مصر حافر البغل فيها ، يمسح فى وهم بعض الناس من بعض العلل ، ويشفى من بعض الأمراض ، ومضت مئات من القرون والميت فى مصر يجنز آخر الدهر كما كان يجنز أوله فلو رفع الصليب من جنازة قبطية ، وصين القرآن ، عن أن يرتله

الهمل فى جنازة مسلة ، لخيل لك أنها جنازة ميت منا معشر القدماء . رسوم احتفال وقربان ، وأكل وحثو تراب ، وشق جيوب ، وولولة نساء ، وعويل عبيد واماء وندب الميت ونعته بكيت وكيت . والأوهام يابنى كما قلت لا تخلو منها الامم الكبيرة والشعوب الحية ، الا أنها تقف حينئذ حيث العامة . لا تجاوزها الى الخاصة ، إلا ما ندر . كما أنها تتملك الأمم الصغيرة والشعوب المنحطة ، فيكون للخاصة منها مثل حظ العامة ، وهنا عظيم البلوى ، ومنتهى نكد الدنيا .

أليس من الوهم القاتل للأنفس ، المميت للقلوب ، أن يصح فى اذهان خاصة المصريين من امراء وعظماء ، وأدباء وعلماء أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى فى أمرهم صلاح ، وأن اتفاقهم سابع الجهات ، ورابع المستحيلات ، وان الوطن ميت وانهم ميتون ؟ وما أشبه ذلك من الدعاوى الباطلة التى لا تنطبق على نواميس الوجود ولا ترد الى احوال البشر ، وحوادث التاريخ .

الأمم يا بنى لا تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال ، فما تلك الا بؤسى تزول ، وحال ستحول . الامة تصح ثم تقتل ، ثم تصح . تتجدد من حيث تبلى ، وتقوم من حيث تسقط ، وتصح بالعلل

هذه اليابان . هل كان فى حسبان أحد أن تضم صوتها يوماً ما الى أصوات دول الغرب فى مسألة من أكبر مسائل العصر ، وتطمع مع الممالك الطامعة ، وتسير الجيوش فى البر ، وتخرج الاساطيل فى البحر ؟ (١) وقد كانت وأنت فى زمن الدراسة لايذكر اسمها الا مقرونا باسم الصين ، عنوان الهمجية ، وعنوان التوحش . والمشبه به اذا ذكر التأخر والانحطاط . وعرض على المسيو « تيرس » الوزير الفرنساوى المشهور مشروع يراد به انشاء السكة الحديدية فى فرنسا فسخر منه علانية فى المجلس ، وعده ضربا من الهذيان ، ثم لم يمض نصف قرن على ذلك حتى اصبحت سكك الحديد فى فرنسا تكاثر الانعام . وقارن المؤرخ فولنيه الشهير باسفاره الطويلة فى الشرق وكتبه الجليلة عنه ، بين القاهرة وباريز على عهده ، فذهب الى أن عدد أهالى القريتين واحد . وأنهما كليتهما تضاءان بالسيرج وزيت الزيتون وتحصنان من الخارج بالاسوار ، ومن الداخل بالابواب ، وأن الانسان لايخرج فيهما

(١) اشارة الى حرب اليابان مع روسيا وهزيمتها لها .

بعد ساعة معلومة من الليل ، الى غير ذلك من شبه التأخر ومخايل الانحطاط . و «فولينيه» هذا قدم القاهرة فى أيام المماليك ، وكتب ما كتب عنهما فى القرن الثامن عشر . فانظر كيف تبدلت الامور وتحولت الاحوال ، واصبحت باريز كما عهدت عروس عواصم الغرب ، تعتاض كل يوم عن ضوء بضوء ، وتبدل حصونا بحصون ، وتذهب مخترعات وتأتى بمخترعات ، وتخرج المدنية من ابوابها ، وتمتد الى ماوراء أسوارها ، من تكاثر الاعمال ، وتزاحم العمال ، على كثرة ما أصابها بعد « فولنيه » من مصائب الدهر ونوائبه ، فكم هول ثورة لاقت ، ونار حرب ذاقت ، وخراب اليه انساقت . وكم حكومة قلبت ، ودولة غيبت وملك قتلت ، وقيصر عزلت .

كل ذلك فى قرن ونصف قرن ثم كانت النتيجة خروجها من دجنة هذه الحوادث سافرة زاهرة . عظيمة فاخرة فلو أن أهلها دعوا الى اليأس فلبوا . وقال لهم عقلاؤهم موتوا أحياء فسمعوا . لكان النتيجة بقاءها على ماوصفها عليه «فولينه» أو اضيق حلقه وأشد انحطاطا من هذا ومنه تعلم يابنى أن العلم والبيان خلقا ليكونا حربا على الاوهام : ونورا يخرج اليه الامم من الظلمات وان حاملهما مطالب بالعمل والدعوة الى العمل ، حتى النفس الاخير من الحياة فمن ثبط همم كم من علمائكم وعظمائكم ، فازوا والوجوه عنه وانفردا بالاسماع منه ، ومن دعاكم الى حياة ، فذلك داعى الخير فاستمعوا له وانصتوا :

قال الهدهد : فما استتم النسر حتى ملئت حياة واملا وثقة من المستقبل الذى اعتقد أنه بيد الله ، اذا شاء صد عنه واذا شاء أقام فيه .

وكان للاستاذ درس يلقيه على الطلبة ، فادرك ان الوقت سرق بعضه بعضا ، وأن حديثه معى كان السبب فى ذلك . فغضب فى نفسه وهرول حتى دخل القاعة الكبرى وهنالك خف مئات الطلبة له اجلالا ، ثم انحنوا اكبارا ، وكان ملل الانتظار تبدو دلائله على وجوههم ، فتأملتهم وأنا لا أصدق حسى فيما أنظر وأسمع ، فاذا هم جميعا مرد أو كالمرد ، لان من عادتهم إزالة شعر الوجه كما قدمنا ، وعليهم أردية ضافية من الكتاب الأبيض .

ثم تصدر الاستاذ للتدريس ، كأنه الملك على عرشه ، فغلب على السرور وقلت فى نفسى الآن نلت من السعادة ما لم ينله أحد . لكنى ما أمهلت للسماع حتى تثاءب النسر وغشيته السنة المعهودة ، فالتفت الى يقول بلسان يعقده النعاس إذا جاء الليل ذهبت الشياطين . وموعدنا غدا هذا المكان ، فاستعذت بالله . وخرجت من أحلامى ، واذا أنا فى وكرى بحلوان .

(يتبع)